أحلام فى الشارع

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

على عتبة (البنك) نام الغلام وأخته يفترشان الرخام البارد، ويلتحفان جوّا رَخامياً فى برده وصلابته على جسميهما.

الطفل مُتكَبكِبٌ فى ثوبه كأنه جسم قُطّع ورُكِمت أعضاؤه بعضها على بعض، وسُجّيتْ بثوب ورُمِيَ الرأس من فوقها فمال على خده.

والفتاة كأنها من الهزال رسم مُخطَّط لامرأة، بدأها المصور ثم أغفلها إذ لم تعجبه. كتب الفقر عليها للأعين ما يكتب الذبول على الزهرة: أنها صارت قَشّا...

نائمة فى صورة ميّتة، أو كميتة فى صورة نائمة؛ وقد انسكب ضوء القمر على وجهها وبقى وجه أخيها فى الظل؛ كأن فى السماء ملكاً وجّه المصباح اليها وحدها إذ عرف أن الطفل ليس فى وجهه علامة همّ، وأن فى وجهها هى كلَّ همها وهم أخيها.

من أجل أنها أنثى قد خُلقت لتلد، خُلق لها قلب يحمل الهموم ويلدها ويربيها.

من أجل أنها أُعدت للأمومة، تتألم دائماً فى الحياة آلاماً فيها معنى انفجار الدم.

من أجل أنها هى التى تزيد الوجود، يزيد هذا الوجودُ دائماً فى أحزانها.

وإذا كانت بطبيعتها تقاسى الألم لا يُطاق حين تلد فَرَحَها، فكيف بها فى الحزن...!

***

وكان رأس الطفل الى صدر أخته وقد نام مطمئناً الى هذا الوجود النسوىّ الذى لابدّ منه لكل طفل مثله مادام الطفل إذا خرج من بطن أمه خرج الى الدنيا والى صدرها معاً.

ونامت هى ويدها مرسلة على أخيها كيد الأم على طفلها. يا إلهى! نامت ويدها مستيقظة!

أهما طفلان؟ أم كلاهما تمثال للانسانية التى شقيت بالسعداء فعوّضها الله من رحمته ألا تجد شقيا مثلها إلا تضاعفت سعادتها به؟

تمثالان يصوران كيف يسرى قلب أحد الحبيبين فى الجسم الآخر فيجعل له وجوداً فوق الدنيا، لا تصل الدنيا اليه بفقرها وغناها، ولا سعادتها وشقائها، لأنه وجود الحب لا وجود العمر؛ وجودٌ سحرى ليس فيه معنى للكلمات فلا فرق بين المال والتراب، والأمير والصعلوك؛ إذ اللغة هناك إحساس الدم، وإذ المعنى ليس فى أشياء المادة ولكن فى أشياء الارادة.

وهل تحيا الألفاظ مع الموت، فيكون بعده للمال معنى وللتراب معنى؟... هى كذلك فى الحب الذى يفعل شبيهاً بما يفعله الموت فى نقله الحياة الى عالم آخر، بَيْدَ أن أحد العالَمين وراء الدنيا، والآخر وراء النفس.

***

تحت يد الأخت الممدودة ينام الطفل المسكين، ومن شعوره بهذه اليد خفّ ثقل الدنيا على قلبه.

لم يبالِ أن نبذه العالم كله، مادام يجد فى أخته عالَم قلبه الصغير.

وكأنه فرخ من فراخ الطير فى عُشّه المعلّق، وقد جمع لحمه الغضّ الأحمر تحت جناح أمه، فأحسّ أهنأ السعادة حين ضيّق فى نفسه الكونَ العظيم وجعله وجوداً من الريش.

وكذلك يسعد كل من يملك قوةَ تغيير الحقائق وتبديلها، وفى هذا تفعل الطفولة فى نشأة عمرها ما لا تفعل بعضه معجزاتُ الفلسفة العليا فى جملة أعمار الفلاسفة.

وما صنع الذين جُنّوا بالذهب، ولا الذين فُتنوا بالسلطة، ولا الذين هلكوا بالحب، ولا الذين تحطموا بالشهوات — إلا أنهم حاولوا عبثاً أن يَرْشُوا رحمةَ الله لتعطيهم فى الذهب والسلطة والحب والشهوات ما نوّلته هذا الطفلَ المسكين النائم فى أشعة الكواكب تحت ذراع كوكبِ روحه الأرضى.

ألاَ إن أعظم الملوك لن يستطيع بكل ملكه أن يشترى الطريقة الهنيئة التى ينبض بها الساعةَ قلبُ هذا الطفل.

***

وقفت أشهد الطفلين وأنا مستيقن أن حولهما ملائكة تصعد وملائكة تنزل، وقلت هذا موضع من مواضع الرحمة، فان الله مع المنكسرة قلوبهم، ولعلى أن أتعرض لنفحة من نفحاتها، ولعل ملكاً كريماً يقول: وهذا بائس آخر: فيرفّنى بجناحه رفّة ما أحوج نفسى اليها، تجد بها فى الأرض لمسة من ذلك النور المتلألئ فوق الشمس والقمر.

وظهر لى بناء (البنك) فى ظلمة الليل من مرأى الغلامين — أسودَ كالحا ، كأنه سجن أقفل على شيطان يمسكه الى الصبح ، ثم يُفتَح له لينطلق معمِّراً ، أىْ مخرّبا . . . أو هو جسم جبارٍ كفر بالله وبالانسانية ولم يؤمن إلا بنفسه وحظوظ نفسه فمسخه الله بناءً ، وأحاطه من هذا الظلام الأسود بمعانى آثامه وكفره .

ياعجبا ! بطنان جائعان فى أطمار بالية يبيتان على الطَّوَى والهم ، ثم لا يكون وسادهما إلا عتبة البنك ! تُرَى مَن الذى لعن (البنك) بهذه اللعنة الحية ؟ ومن الذى وضع هذين القلبين الفارغين موضعهما ذلك ليثبت للناس أنْ ليس البنك خزائن حديديةً يملؤها الذهب ، ولكنه خزائن قلبيةٌ يملؤها الحب .. ؟

***

وقفت أرى الطفلين رؤية فكرٍ ورؤية شعر معاً ، فاذا الفكر والشعر يمتدان بينى وبين أحلامهما ، ودخلت فى نفسين مضّهما الهم واشتد عليهما الفقر ، وما من شىء فى الحياة إلا كادَّهما وعاسرهما ؛ ونمت نومتى الشعرية . . .

قال الطفل لأخته : هلمّى فلنذهبْ من هنا فنقف على باب (السيما) نتفرج مما بنا ، فنرى أولاد الأغنياء الذين لهم أب وأم .

انظرى هاهم أولاء يُرَى عليهم أثر الغنى ، وتُعرَف فيهم روح النعمة ؛ وقد شبعوا . . . إنهم يلبسون لحماً على عظامهم ، أما نحن فنلبس على عظامنا جلداً كجلد الحذاء ؛ إنهم أولاد أهليهم ، أما نحن فأولاد الأرض ؛ هم أطفال ، ونحن حطبٌ إنسانىّ يابس ؛ يعيشون فى الحياة ثم يموتون ، أما نحن فعيشنا هو سكرات الموت ، إلى أن نموت ؛ لهم عيش وموت ، ولنا الموت مكرراً .

ويلى على ذلك الطفل الأبيض السمين ، الحسن النزّة ، الأنيق الشارة ، ذاك الذى يأكل الحلوى أكلَ لصّ قد سرق طعاماً فأسرع يَحْدِرُ فى جوفه ما سرق ؛ هو الغنى الذى جعله يبتلع بهذه الشراهة كأنما يشرب ما يأكل ، أو له حلق غير الحلوق ، ونحن — إذا أكلنا — نغصّ بالخبز لا أُدْمَ معه ، وإذا ارتفعنا عن هذه الحالة لم نجد إلا البشيع من الطعام وأصبناه عِفناً أو فاسداً لا يسوغ فى الحلق ، فاذا انخفضنا فليس إلا ما نتقمّم من قشور الأرض ومن حُتات الخبز كالدواب والكلاب ؛ وإن لم نجد ومسّنا العُدْم وقفنا نتحيّن طعام قوم فى دار أو نُزُل فنراهم يأكلون فنأكل معهم بأعيننا ، ولا نطمع أن نستطعمهم وإلا أطعمونا ضرباً فنكون قد جئناهم بألم واحد فردّونا بألمين ، ونفقد بالضرب ما كان يمسك رمقنا من الاحتمال والصبر .

هؤلاء الأطفال يتضوّرون شهوة كلما أكلوا ليعودوا فيأكلوا ، ونحن نتضوّر جوعاً ولا نأكل ، لنعود فنجوع ولا نأكل ؛ وهم بين سمع أهليهم وبصرهم ؛ ما من أنّةٍ إلا وقعت فى قلب ، وما من كلمة إلا وجدت إجابة ؛ ونحن بين سمع الشوارع وبصرها ، أنين ضائع ، ودموع غير مرحومة !

آه لو كبرت فصرت رجلاً طويلاً عريضاً ! أتدرين ماذا أصنع ؟

— ماذا تصنع يا أحمد ؟

— إننى أخنق بيدىّ كل هؤلاء الأطفال !

— سَوْأة لك ياأحمد ، كل طفل من هؤلاء له أم مثل أمنا التى ماتت ، وله أخت مثلى ؛ فما عسى ينزل بى لو ثكلتك إذا خنقك رجل طويل عريض ؟

— لا ، لا أخنقهم ؛ بل سأرضيهم من نفسى ؛ أنا أريد أن أصير رجلاً مثل (المدير) الذى رأيناه فى سيارته اليوم على حال من السطوة تعلن أنه المدير . . . أتدرين ماذا أصنع ؟

— ماذا تصنع يا أحمد ؟

— أرأيت عربة الاسعاف التى جاءت عند الظهر فانقلبت نعشاً للرجل الهرم المحطم الذى أغمى عليه فى الطريق . ؟ سمعتهم يقولون : إن المدير هو الذى أمر باتخاذ هذه العربة ، ولكنه رجل غُفْل لم يتعلم من الحياة مثلنا ، ولم تُحْكِمْه تجارب الدنيا فالذى يموت بالفُجاءة أو غيرها لايحييه المدير ولا غير المدير ، والذى يقع فى الطريق يجد من الناس من يبتدرونه لنجدته وإسعافه بقلوب إنسانية رحيمة ، لابقلب سواق عربة ينتظر المصيبة على أنها رزق وعيش .

إن عربات الاسعاف هذه يجب أن يكون فيها أكل . . ويجب أن تحمل أمثالنا من الطرق والشوارع إلى البيوت والمدارس ؛ وإن لم يكن للطفل أم تطعمه وتؤويه فلتُصنع له أم .

كل شىء أراه لا أراه إلا على الغلط ، كأن الدنيا منقلبة أو مدبرة أدبارها ، وما قطُّ رأيت الأمور فى بلادنا جارية على مجاريها ؛ فهؤلاء الحكام لاينبغى أن يكونوا إلا من أولاد صالحى الفقراء ، ليحكموا بقانون الفقر والرحمة ، لا بقانون الغنى والقسوة ، وليتقحّموا الأمور العظيمة المشتبهة بنفوس عظيمة صريحة قد نبتت على صلابة وبأس ، وخلق ودين ورحمة ؛ فانه لاينهزم فى

معركة الحوادث إلا روح النعمة فى أهل النعمة ، وأخلاقُ اللين فى أهل اللين ؛ وبهؤلاء لم يبرح الشرق من هزيمة سياسية فى كل حادثة سياسية .

إن للحكم لحماً ودماً هو لحم الحاكم ودمه ؛ فان كان صلباً خشناً فيه روح الأرض وروح السماء فذاك ، وإلا قتل اللين والترف الحكم والحاكم جميعاً . وهؤلاء الحكام من أولاد الأغنياء لايكون لهم هم إلا أن يرفعوا من شأن أنفسهم ، إذ السلطة درجة فوق الغني ، ومن نال هذه استشرف لتلك ، فاذا جمعوها كان منهما الخلق الظالم الذى يصور لهم الاعتداء قوة وسطوة وعلوّا ، من حيث عدموا الخلق الرحيم الذى يصور لهم هذه القوة ضعفاً وجبناً ونذالة . إن أحدهم إذا حكم وتسلط أراد أن يضرب ، ثم لم تكن ضربته الأولى إلا فى المبدأ الاجتماعى للأمة ، أو فى الأصل الأدبى للانسانية . ويحرصون على مابه تمامهم ، أى على السلطة ، أى على الحكم ؛ فيحملهم ذلك على أن يتكلفوا للحرص أخلاقه ، وأن يجمعوا فى أنفسهم أسبابه ؛ من المداراة والمصانعة والمهاونة ، نازلاً فنازلاً إلى درك بعيد ، فينشرون أسوأ الأخلاق بقوة القانون ماداموا هم القوة .

— وماذا تريد أن يصنع أولاد الأغنياء يا أحمد ؟

— أما أولاد الأغنياء فيجب أن يباشروا الصناعة والتجارة ليجدوا عملاً شريفاً يصيبون منه رزقهم بأيديهم لا بأيدى آبائهم ، فانه والله لولا العمى الاجتماعى لما كان فرقٌ بين ابن أمير متبطّل فى أملاك أبيه من القصور والضياع وابن فقير متبطل فى أملاك المجلس البلدى من الأزقة والشوارع . . .

وابن الأمير إذا كان نجاراً أو حداداً أصلح السوق والشارع بأخلاقه الطيبة اللينة ، وتعفّفه وكرمه ، فيتعلم سوادُ الناس منه الأمانة والصدق ، إذ هو لايكذب ولايسرق مادام فوق الاضطرار ، ولا كذلك ابن الفقير الذى يضطره العيش أن يكون تاجراً أو صانعاً فتكون حرفة التجارة ، وهى السرقة ، أو الصناعة وهى الغش ، ويكون فى الناس أكثرَ عمرِه مادةَ كذبٍ وإثم ولصوصية .

آه لو صرت مديراً ! أتدرين ماذا أصنع ؟

— ماذا تصنع يا أحمد ؟

— أعمد الى الأغنياء فأردهم بالقوة إلى الانسانية ، وأحملهم عليها حملاً ، وأصلح فيهم صفاتها التى أفسدها الترف واللين والنعمة ، ثم أصلح ماأخلّ به الفقر من صفات الانسانية بالفقراء ، وأحملهم على ذلك حملاً ، فيستوى هؤلاء وهؤلاء ، ويتقاربون على أصل فى الدم إن لم يلده آباؤهم ولده القانون . ألا إن سقوط أمتنا هذه لم يأت إلا من تعادى الصفات الانسانية فى أفرادها ، فتقطّع مابينهم ، فهم أعداء فى وطنهم ، وإن كان اسمهم أهل وطنهم

ومتى أحكمت الصفات الانسانية فى الأمة كلها ودانى بعضها بعضاً — صار قانون كل فرد كلمتين ، لا كلمة واحدة كما هو الآن . القانون الآن (حَقّى) ونحن نريد أن يكون (حَقّى وواجبى) وما أهلك الفقراء بالأغنياء ، ولا الأغنياء بالفقراء ولا المحكومين بالحكام إلا قانون الكلمة الواحدة .

* * *

أنا أحمد المدير . . . لست المدير بما فى نفس أحمد ، ولا بمعدته وبطنه ، ولا بما يريد أحمد لنفسه وأولاده . . . كلا ، أنا عمل اجتماعى منظم يحكم أعمال الناس بالعدل ، أنا خلقٌ ثابت يوجه أخلاقهم بالقوة ، أنا الحياة الأمّ مع الحياة الأطفال الأخوة فى هذا البيت الذى يسمى الوطن ، أنا الرحمة ، عندى الجنة ولكن عندى جهنم أيضاً مادام فى الناس من يعصى ، أنا بكل ذلك لست أحمد ، لكنى الأصلاح .

هأنذا قد صرت مديراً أعسّ فى الطريق بالليل وأتفقد الناس ونوائبهم .

من أرى ؟ هذا طفل وأخته نائمان على عتبة البنك فى حياة كأهدامهما المرقعة ، فى دنيا تمزقت عليهما ، قم يابنىّ ، لا تُرَعْ إنما أنا كأبيك ، تقول : اسمك أحمد ، واسم اختك أمينة ؟

تقول : انك مانمت من الجوع ، ولكن مضمضتّ عينك بشعاع النوم ؟

ياولدىّ المسكينين بأى ذنب من ذنوبكما دقتكما الأيام دقاً وطحنتكما طحنا ، وبأى فضيلة من الفضائل يكون ابن فلان باشا وبنت فلان باشا فى هذا العيش اللين يختاران منه ويتأنقان فيه ، ماالذى ضرّ الوطن منكما فتموتا ، وما الذى نفع الوطن منهما فيعيشا ؟

إن كنت يابنى لاتملك لنفسك الانتصار من هذه الظليمة فأنا أملكها لك ، وإنما أنا المظلوم إلى أن تنتصر ، وإنما أنا الضعيف إلى أن آخذ لك الحق .

إلىّ بابن فلان باشا وبنت فلان باشا .

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]